فيضان النيل ...

بين التفاؤل والتشاؤم

للاستاذ عبد الفتاح البارودي

ذكرتني القصيدة التي نشرتها « الرسالة » تحت عنوان : (وحي فيضان سنة ١٩٤٦) في عددها رقم ٦٩٣ بالفزع البالغ الذي أصاب البلاد جميعاً إبان اشتداد الفيضان في أغسطس الماضي، وغنى عن البيان أن النكبة كانت جسيمة وأن الخسارة الناجمة عنها كانت ولا تزال فادحة ، ولكن هل كان ينبغي أن يصل الأمر إلى هذا الحد من التشاؤم الذي شاهدناه مرتسما وقتئذ على وجوه الناس والذي صورته كل الصحف بلا استثناء والذي أوحى إلى الشاعر أن يصف الفيضان (بالهول العظيم !!) ويصف مياه النيل بأنها (ترد البلاد كأنها أغوال !!) ؟

عليه ، وشاهدوه ، ثم ينسون كل شيء عنه ... هذا أمر عجيب ! والأغرب من ذلك اتفاق الثلاثة على هذا النسيان ! اللهم إن شهادة الشهود في المحاكم أمر مشكوك فيه ، ويجب على القضاة أن يتنبهوا إلى هذه الحقائق النفسية الثابتة بالخبرة والتجربة !

لا أملك الحديث عن زملائي الآخرين ، ولكني أعرف نفسي . فأنا حقيقة كثير النسيان ، وعلى الخصوص فيما يتصل بأسماء الأشخاص . وهذه مسألة تحدث لي كثيراً من الخجل والارتباك عند ما أكون في صحبة صديق ، ثم أقابل صديقاً آخر في الطريق مثلا فأحييه ويحييني ، ويستوقفني يتحدث إليّ ، ثم أحاول أن أقدم الشخصين أحدهما إلى الآخر ، وهنا تخونني الذاكرة فأفتقد اسم صديقي ، وقد يكون عزيزاً لدي أعرفه من زمن طويل ، وليس مايدعو إلى نسيان اسمه ، فأقع في الحيرة والخجل ، وألجأ إلى الحيلة فلا أقدم أحدهما إلى الآخر ، وأضرب صفحاً عن هذه المجاملات الاجتماعية الضرورية .

وقد تسألني : وما علة هذا النسيان ، وما سبب نسيان أسماء الأصدقاء بالذات ؟

الواقع أنني لم أعثر على جواب يقنعني ، ولعل أحداً يتبرع بالجواب ...

أحمد فؤاد الأهواني

صحيح أنه كان لشدة اهتمام الحكومة وقلقها ومظاهر الرعب التي بدت على تصريحاتها أثر محسوس في الإشعار بالخطورة ، ولكن أليس المفروض من جهة أخرى أن التزاماتها ومسؤولياتها قد تسوغ لها « تقدير البلاء قبل نزوله » لتهيىء الشعب لاحتماله أو دفعه أو توقيه بالحيطة والحذر والعمل تهيئة جدية ؟ ومع هذا فالإجراءات التي اتخذتها — وقصاراها اعتماد مبلغ ٢١٠ آلاف جنيه وتشغيل بعض الأيدي العاملة — كان ينبغي أن ترشدنا إلى أن الحالة كانت مطمئنة أو على الأقل غير مروعة إذا قورنت بالسوابق في الفيضانات التي انتابت البلاد الأخرى في القديم والحديث، بل إذا قورنت بالسوابق الغير بعيدة في فيضانات النيل ذاته « نسبياً » : ذكر ابن تغرى بردى في (النجوم الزاهرة) أنه كان يُرصد لعمارة جسور النيل وانقاء فيضانه ثلث الخراج سنوياً ، وحكى ابن لهيعة أن المرتبين للوقاية من الفيضان سنوياً مائة ألف وعشرون ألف رجل : سبعون ألفاً للصعيد ، وخمسون ألفاً للوجه البحري . ورغم هذه الاحتياطات الشديدة فقد روى ابن زولاق أن أحمد بن المدبر لما ولي الخراج بمصر كشف أرضها فوجد غامرها أكثر من عامرها .

أي أن الحالة التي كانت استفحلت هذا العام لم تكن غريبة على الوادي ، ولم تكن تستلزم ولا تحتم التشاؤم الأسود الذي قابلناها به ، بل إني أزعم بكل شجاعة — بعد فوات الأوان ! — أن التفاؤل المطلق كان أنسب لها وأحرى بنا ! ! لماذا ؟ أبادر فأقول إن الحجة حاضرة ولكني أريد قبل أن أسوقها أن أسوق من بعض حوادث أسلافنا بهذا الصدد عبرة وقياساً ولو لمجرد الترفيه الفني والتذكير التاريخي : جاء في (نهاية الأرب) للنويري أن النيل يبلغ تمامه إذا وفى ستة عشر ذراعاً ، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً بمقياس مصر . أي أنه بالبداهة إن زاد عن ١٧ ذراعاً مثلا كان مُغرقا وإن نقص عن ١٣ ذراعاً مثلا كان مقحطاً . فما الرأي في أن الناس كانوا يتفاءلون بزيادته حتى أغرقت ويتشاءمون من أي نقصان مهما قصد واعتدل ؟ وما الرأي في أن الحوادث كانت تؤيدهم دائماً تأييداً إن يكن غير منطق إلا أنه واقعي ؟ فمثلا عند ما بلغت زيادة النيل أقصاها (١٩ ذراعاً) في سنتي ٣٣٢ هـ ، ٤١٠ هـ تصادف أن كانت حوادثهما سعيدة في الغالب . ففي السنة الأولى تزوج ابن الخليفة المتقي بالله بنت

ناصر الدولة بن حمدان التغلبي وتآلفت قلوب المسلمين ... وفيها أطلق الروم أسارى المسلمين ... وفى السنة الثانية فتحت بلاد الهند وغنم المسلمون بغنائمها ... الخ . هذا بينما عند ما بلغ انخفاض النيل (١٢ ذراعاً) فقط فى سنتى ٣١٥ هـ ، ٣٥٦ هـ تصادف أن كانت حوادثهما محزنة فى الغالب . ففى السنة الأولى غضب الناس على الوالى عبدويه بن جبلة وحزنوا كذلك لوفاة زبيدة بنت جعفر زوجة هرون الرشيد، وكانت أعظم نساء عصرها ديناً وأصلا وجمالا وصيانة وممروفاً ... وفى السنة الثانية مات السلطان معز الدولة ابن بويه ، وقبض على الملك الناصر وولده أبو تغلب ومات الإمام العلامة أبو الفرج الأصبهانى مصنف كتاب الأغانى ... الخ .

مصادفات . ولكن أعجب ما فيها دلالاتها المطردة فى سنى الرخاء والجدب على السواء .

فإذا تركنا التكهنات إلى الحقائق . وجدنا بالاستقراء والاستقصاء أن وادى النيل لم ينكب نكبة واحدة بسبب الفيضان أيا كان طغيانه فى حين أن المجاعات الفظيعة فى مصر كالمجاعة التى حدثت فى آخر حكم الأسرة السادسة الفرعونية ، والمجاعة التى حدثت أيام يوسف الصديق ، والمجاعة التى حدثت فى العهد الفاطمى وعرفت باسم « الشدة المستنصرية » ، والمجاعة التى حدثت فى عصر المماليك زمن السلطان كتبغا ... إلى آخر المجاعات التى روعت الوادى واجتاحته فى مختلف العهود تدل دلالة قاطعة على أن سببها الوحيد المباشر هو انخفاض النيل على تفاوت . وأظن أنى لست فى حاجة إلى وصف حالة البلاد وسكانها أثناء هذه المجاعات فذلك مذكور مشهور فى كتب الأدب والتاريخ . ومن قبيل التمثيل أذكر بعضاً مما حدث أثناء «الشدة المستنصرية» فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، فقد وصل الأمر إلى حد أن أكلت النساء أولادهن الموتى، وأكل الناس الحيوانات الميتة من كلاب وقطط وحمير وغيرها لدرجة أن تسبب من التهافت عليها ارتفاع أثمانها وصعوبة الحصول عليها ، وزادت المحنة اشتداداً حتى كاد الناس من هول الجوع يأكل بعضهم بعضاً . رُوِىَ أن وزير المستنصر نزل عن بغلته أمام باب القصر وتركها تحت حراسة غلامه فهجم ثلاثة رجال على الغلام وأخذوا البغلة قسراً وذبحوها وأكلوا بعضها وباعوا الباقى فقبض عليهم وصلبوا عقاباً لهم فى أحد الميادين . فلما أصبح الناس لم يروا إلا بقايا عظامهم إذ كان الشعب الجائع قد أكل لحومهم أثناء الليل ! !

هذا مثل واحد من أمثلة المجاعات التى كانت تحدث بسبب انخفاض النيل ، ولذلك أجمعت الروايات المختلفة على أنه « كان يحصل لأهل مصر إذا وفى النيل — بغير تحديد — فرح عظيم بحيث أن السلطان يركب فى خواصّ دولته وأكابر الأمراء فى الحراريق إلى المقياس ويمد سماطاً يأكل منه الخواص والعوام ويخلع على المقياس ويصله بأجزل الصلات » ونحو ذلك .

فلماذا لا نساير منطق الحوادث ، ومنطق الحقائق ، ومنطق التاريخ معاً ، ونتفاءل أعظم التفاؤل من الفيضان الذى دهمنا هذا العام — بشرط عدم التهاون أو التراخى فى تدبير وتوفير وسائل المكافحة الناجعة مستقبلا — فلعل خطورته أن تسفر كالعهد بها عن مصادفة سعيدة ، ولعلها أن تكون تحقيق « الجلاء ووحدة وادى النيل » .

عبد الفتاح البارودى

لم يبق فى إدارة الرسالة
إلا نسخ محدودة
من كتاب :
دفاع عن البلاغة
للأستاذ
أحمد حسن الزيات
فيباع إلى طلب نسختك من « دار الرسالة » .
ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد